

## الوعظ الديني في خدمة المجتمع

لحضرة صاحب السعادة عبد السلام الشاذلي باشا

سبق لي أن دعوت على صفحات هذه المجلة أئمة المساجد وخطباءها والقائمين بالإرشاد الديني إلى الخروج من دائرة الوعظ التقليدي الذي لا يزيد على أنه سرد لأركان الإسلام ، وإحصاء للفروض والسنن ، ووعدهم بجزيل الثواب ، وتحذيرهم من شديد العقاب .

وإذا كان حقا أن في عصر اليوم طائفة من الأئمة والخطباء قد نشطت إلى مهمتها أخذة بأساليب الوعظ الحديثة ، فالحق أيضا أن المنابر وحلقات الدرس قد تماقت عليها الأجيال دون أن تظفر من فريق من الوعاظ بغير ذلك الحظ ، حظ السرد والإحصاء ، والوعد والوعيد ، في عبارات نامضة لا تعمل في النفوس عملها المرجو ، وفي جمل متشابهة تصلح لكل جيل وكل قبيل ، وفي تعميم لا يخلو للناس حقائق الدين ولا يكشف لهم محاسن الدنيا ، بل هو ينصب على وجوب الإعراض عن الدنيا ونبذها وتحجيرها والترهيد في نعيمها ، كأن الله لم يخلقها لنا ولم يخلقنا لها ، ولم يوصنا ألا ننسى نصيبنا منها ، بل كأن هذه الدنيا ليست هي سبلنا إلى الآخرة .

الدنيا ليست في نظر الدين هينة ولا حتمية ولا جدية أن تنبذ ويعرض عنها ، وما ينبغي لأحد أن يفلو في تصغيرها ويصرف قلوب الناس عنها وعن طلب منافعها وطيباتها وعن العمل لنشر السعادة والرخاء والسلام في أرجائها وتوجيه أصحابها إلى أمثل الطرق لإرضاء أنفسهم وإرضاء الله .

ومن ثم فالواعظ النافع هو الذي يكون له فضل في هذا التوجيه ، وهو الذي يحسن استخدام ما وعى من نصائح الدين في إصلاح شؤون الدنيا ، بحيث لا ينسى الناس واجباتهم في كلتا الناحيتين .

وإذا كان عمل الواعظ كما بينا ، دينا ودينويا معا ، فقد وجب عليه أن يعمل على إصلاح "التدين" أو بعبارة أوسع وأوضح ، تصحيح فهم الناس لتعاليم الدين وإرشادهم إلى أمثل الطرق لتطبيقها ، وتنقية هذا التدين من الأوهام والخزعبلات التي عاقت به ، والعودة إلى الصواب في القضايا التي أمسى فهمها فأسيء تطبيقها .

نريد من الواعظ أن يفهم الناس أن اهتمامهم بإسعاد دنياهم هو الوسيلة التي يسعدون بها آخرتهم ، إذ لا غنى لطالب الخير في الآجلة عن طلب الخير في العاجلة . ومن الخطأ أن يحسب بعضهم أن الكدح والدأب من أجل العيش المنيء والحياة السعيدة وإحراز المجد والقوة

والسيطرة والعظمة قد يتنافى مع التوكل على الله والإيمان برحمته وبأنه يبسط الرزق لمن يشاء  
بغير حساب . نعم من الخطأ أن يتمكن هذا الوهم من روع الناس ، فيقول ابن زريق  
الشاعر :

والسعى فى الرزق ، والأرزاق قد قسمت ،      بفى ، ألا إن بنى المرء يصصره  
فذلك أسوأ ما يدبره الإنسان أمر حياته ، وأبعد ما يكون عن فهم معنى التوكل على  
الله ، وأخطر ما يجب أن يحاربه الواعظ الدينى ليجتثه من نفوس الناس .

يجب أن يقول لهم إن التوكل هو العمل والدأب مع الثقة بالله ودوام الاستعانة به .  
وإلا فلو أن النبي صلى الله عليه وسلم فنع من حسن الإسلام بالتوكل وقعد عن الفتح لما قامت  
للإسلام قائمة . ولو أن الخليفين الأولين اكتفيا بالتوكل ولم يعملوا للدنيا لما قامت  
الأمبراطورية العربية التي كآنى بالتاريخ لم يعمل إلا لتدوين عظمتها واتحدت بأثارها  
ومناقها .

يجب أن يظهر للمسلمين فساد الفهم الذى فهموه من قوله تعالى : « قل لن يصيبنا  
إلا ما كتب الله لنا » وفساد ما استنبطوه منها من الحكم الشعبية المثبطة للهمم ، الميتة للعزائم ،  
كقولهم : « الرزق على الله » و « الله يرزق الحاجع والناجع والراقد على أذنيه » و « إن نمت  
عن رزقك فرزقك لا ينام عنك » وأن بين لهم الفارق العظيم بين ما أَرَادَهُ اللهُ وما فهمه المتأخرون .  
فالناس إن توانوا عن السعى منتظرين من السماء رزقهم فسيطول انتظارهم دون جدوى ،  
لأن السماء — كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — لا تمطر ذهباً ولا فضة ، ولأن  
العدل الإلهى يابى أن يرزق القاعد والكسول كما يرزق الساعى والمجد ، وأنهم إذا جروا على  
هذه القاعدة ، قاعدة الذواكل فيسعونه توكلاً ، والتفريط يحسبونه إيماناً ، لم يقف حنظلهم  
عند ترك الخير والقعود عن طلبه ، بل قعدوا عن اتقاء الشر والعمل لدفعه .

يجب أن يقول لهم : « إن الدين المعاملة » أى أن حسن المعاملة بين الناس هو النتيجة  
التي تنتهى إليها العبادات . والله لا يرضى من الناس بعبادات لا تؤدى إلى هذه النتيجة ، وأن  
العمل الصالح فى الدنيا يرفع الكلم الطيب إلى الله ، وفى ذلك يقول أصدق القائلين : « إليه  
يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » .

ليكن هذا من أهم ما يهتم به الواعظ الدينى ، فيبين للناس دينهم على حقيقته ويفسر لهم  
الكتاب والسنة تفسيراً صحيحاً يحفزهم إلى العمل الصالح الذى يسعدهم فى دنياهم فيسعدون  
فى آخرتهم ، وأن يوجههم إلى خير الأعمال الصالحة وهى التعاون الإنسانى فى مختلف أشكاله .

ليقل لهم إن الله لم يجعل الصلاة لتكون حركات آلية وترديد آيات وتلاوة أدعية ، وإنما  
أراد أن يسبقها الوضوء لتنظيف الأطراف نظافة كاملة لا مجرد إجراء الماء عليها ، وأرادها

أن تكون ووقفا يقفه بين يدي خالقه ليقول له فيه إنه مؤمن به ، مصدق لما أنزل عليه ، عامل وفق أوامره ، عازم على المضى فى طاعته ، شاكر لنعمة ، نادم على ما فرط منه ، فيجب أن يكون المصلى صادقا فيما يقول فى صلاته مؤمنا به ، وإلا فإنه يكذب على الله وهو قائم بين يديه والله عالم حقيقة ما يخفى وما يعلن .

ليقل لهم إن الإنسان يتجنب ارتكاب الجرائم لأنه مؤمن بوجود قانون العقوبات وبوجود الحاكم الذى ينفذ أحكامه ، فكيف لا يتجنب المحرمات إذا كان مؤمنا بوجود الله وقيام الحساب ؟ إلا أنه لو كان صادق الايمان لكان صادق الصلاة ، ولو كان صادق الصلاة لتجنب المعاصى . وإلا فكيف يطلب النفران وهو عازم على المنصية ، وكيف يرجو التوبة وهو مصر على الإنم ، وكيف يزعم أمام عالم الضيب والشهادة أنه مؤمن بالحساب والجزاء وهو لا يخشاهما ؟ ولذلك يقول الله تعالى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ويريد الصلاة الصادقة الصادرة عن قلب يفهم معانيها وما يجب أن يرتب على هذه المعانى . أما الصلاة التى لا تنهى عن الفحشاء والمنكر ولا تنهى بصاحبها إلى الصلاح الحقيق فهى كذب على الله واجترأ على مقامه . وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم تنبه صلاته وصيامه عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعدا » .

ويقل لهم إن الله غنى عن الناس وليس فى حاجة لأن يعبد ، وإنما فرض العبادات وجعلها وسيلة الى تحقيق الإصلاح الاجتماعى .

فالصيام ليس عقوبة جوع بالنهار يتبعها غفو بالليل ، وإنما هو الى جانب كونه مهذبا للأخلاق ومرفقا للطباع ، تهويد للجسم والنفس على الحرمان طيلة شهر من أشهر السنة اعدادا لها لتحمل الشدائد ، حتى اذا جاء زمن يتطلب الحرمان أو الاجترأ أو التوجب اويحتنها تحتيا كرم الحرب والمجاعة ، كانت النفوس والأجسام مهيأة لها متعودة عليهما مستعدة لتحملهما . فالذين يصومون بالنهار ويشبعون الجسم طعاما واستمتاعا بالليل إنما يضيعون حكمة الصوم ويفوتهم ثوابه ، ولا يقبلون الا أنهم يفتنون أنفسهم بالجوع والظما نهارا فى غير طائل . لأن الصائم الصادق فى صيامه هو الذى يأكل فى رمضان ليتقوت ويعيش لايشبع ويستمتع . ويقل لهم إن الصدقة شىء والزكاة شىء آخر . فالزكاة ضريبة ضرها الله على القادر يعيش منها العائل ، وشطر من مال الفنى جملة حقا للسائل والمحروم ، فلا يتحلل منها المسلم بقبض الصدقات ولا يتحامل الفنى على الفرار منها بصنوف الخيل ، فإن ما يجوز على الوالى أو القاضى من المحاولات لا يمكن أن يجوز ولا أن يتظلى على الله سبحانه .

ويقل لهم إن الله لم يفرض الحج ليكون مجرد سفر الى الججاز ورحلة بين المناسك ، وإنما فرضه لأغراض انسانية اراد بها استدامة عطف المسلمين على البلد الذى نشأ فيه الإسلام ، وجعل بعض الأغراض الاجتماعية شروطا لصحة الحج بدونها لا تستقيم فريضته ، وقد بين الإمام

الغزالي في كتابه "إحياء علوم الدين" هذه الأغراض فنص على أنه يجب على معتمري الحج قبل أن يخطو الخطوة الأولى في طريقه أن يوفى ما عليه من الديون ويرد ما في ذمته من الأمانات ويصلح ما ارتكب من الأخطاء الضارة بالصالح الغير ويستغفر الناس بالعمل قبل أن يستغفر الله بالقول عما أتى من المظالم . وإلا فالحج غير مستوف شرطه ومن ثم فهو غير مقبول .

ولياخذ للناس من كتاب الله وسنة نبيه وآثار السلف الصالح ما يصلح شؤونهم ويرد مجتمعهم إلى الوحدة والتآخي والتعاون على البر والخير ، وله في ذلك نهج شديد من قول الله تعالى "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما" ومن قوله : "إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون" وليستخرج ما يرغبهم في مجالس المصالحات وما يحلهم على التدخل لإحلال السلام في العائلات وإحكام الصلات بين المتخاصمين .

وليسر في وعظه وتوجيهه سيرة السابقين الأولين من بناء الإسلام ودعائه ، وليقل لسامعيه قول علي بن أبي طالب في ذم البخل : "عجبت للبخیل يستعجل الفقر بحبس ماله عن نفسه وعن الناس ، فيعيش في الدنيا عيشة الفقراء ، ويحاسب في الآخرة حساب الاغنياء" وليفسر لهم ما في هذا القول من حث على البذل في سبيل تعميم المنشآت الخيرية ومعاودة الأعمال الاجتماعية ، وليأخذهم بما كان رضى الله عنه يأخذه به الناس من منطلق سليم مقنع مؤثر ، حين يقول لهم موجها إياهم إلى الإحسان : "افعلوا الخير ولا تحقروا منه شيئا ، فإن صغيره كبير وقليله كثير" وليبين لهم أن الكثير إنما يتجمع من القليل وأن النخل من المساهمة في الخير بالقليل خطأ كبير . وليذكر لهم من آثاره ، كرم الله وجهه ، ذلك القول الجامع الرائع الذى ربط فيه أوثق رباط بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة ، إذ سمع رجلا من المقرين إليه يقول : "استغفر الله" فانتبه قائلا : "نكلتك أمك . ليس الاستغفار كلمة تقال وإنما هو أعمال تعمل . الاستغفار هو الندم على ما فات مع العزم على ترك العود إليه ، وأن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس لا تبعه عليك ، وأن تعتمد إلى كل فريضة ضيعتها فتؤديها ، وأن تعتمد إلى اللحم الذى نبت على السحت فتذيبه ، وأن تديق الجسم ألم الطاعة كما أذقته لذة المعصية ، وبعد ذلك تقول : "استغفر الله"

وليجعل للأسرة نصيبا موفورا من وعظه ، ذار باب الأسر أحوج ما يكونون إلى من يوجههم نحو تعاليم الإسلام الصحيحة في سياسة البيت وتربية الأولاد وصيانة حقوق الزوجة وإكرام المرأة ، وإلى من يصور لهم بشاعة الطلاق وما ينجم عنه من تفكك الروابط وتمشيت القلوب وتوزع العواطف وخراب البيوت ، وإلى من يرسم لهم الحدود التى شرعها الله لتعدد الزوجات وينبئهم إلى ما فى تجاوز هذه الحدود من آثار مشثومة تقوض دعائم الأسرة وتهدم كيان العائلة ، وليضرب لهم الأمثال مما يجرى حولهم ومن الجنائيات التى تقع قريبا منهم بسبب ذلك التعدد .



تلك أمثلة لما يجب أن يكون عليه الوعظ الديني فوق المنابر وحلقات الدرس ؛ ذكرتها لا باعتبار أنها كل ما يحصر فيه الواعظ دروسه ، بل باعتبار أنها نماذج لما ينبغي أن يوجه إليه نشاطه وتفكيره وإرشاده . والقرآن الكريم والسنة الشريفة ، وآثار السانف الصالح ، كل ذلك فياض بالأحكام والعبر والمثلات التي يستطيع الواعظ اللبق أن يحلوها ويبسطها للناس في عبارات سهلة لا تسمو على مداركهم بل تجعل السامعين يقبلون نايه بجمعة قلوبهم متأثرين مهتدين .

والإرشاد الاجتماعي إذا استمد من أوامر الله وآداب الدين كان أقرب الدعايات إلى العقول وأفعالها في النفوس . فأنت إذا قلت للفلاح المصري : كن نظيفاً كالانجليزي ، قال لك أو قال لنفسه : وأين أنا من الانجليزي الذي سبقني إلى المدينة بأجيال وقرون ؟ أما إذا جئت من ناحية الدين وقلت له كن نظيفاً لأن دينك يأمرك بالنظافة ، ولأن من حسن إيمان المرء أن يكون نظيفاً ولأن إسلامك لا يتم إلا بالنظافة وأن الانجليزي قد أخذوا بقوانين النظافة عن دين المسامين بعد أن تركها المسلمون ، إذا جئت من هذه الناحية وقلت له ذلك كان لقولك أثر بالغ في نفسه لا يمكن أن يباغته نصيح آخر .

وبعد فالواعظ الديني من أنفع عمال الإصلاح الإجتماعي إذا أحسن تسليط أشعة الدين على شؤون الدنيا . والإسلام بلا شك دين الإصلاح والتهديب وال عمران ، فليفهمه الوعاظ ثم فليفهموه للناس .

عبد السلام الشاذلي